اللحن في الكتابات العربية

obeikan.com

obeikan.com

اللحن في الكتابات العربية

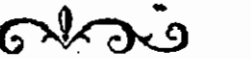

أثار اللحن اهتمام بعض الشعراء واللغويين والدارسين وغيرهم في القديم والحديث ، ولهم في ذلك أشعار، وشذرات نثرية ، ونتف ، وكتب ، ومقالات ، وها نحن نعرض لشيء من هذا .

وأهم ما يسترعى الانتباه أن العرب الأوائل لم يتفقوا في تقدير اللحن ، فهناك من امتدحه ، وهناك من سخط عليه . فمالك ابن أسماء بن خارجة الفزاري يقول :

منطق واضح وتلحن أحيا نا وأحلى الحديث ما كان لحنا

ويقول القتال الكلابى:

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا واللحن يفهمه ذوو الألباب

وينسب إلى عمر بن الخطاب والى أبى مهدية أيضا القول : «تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن»[1] ،

(١) مادة لحن – أساس البلاغة . وذيل كتاب الملاحن الذي أعده أبو إسحاق إبراهيم أطفيش.

ويقول عمر بن عبد العزيز: «عجبت لمن لاحن الناس ولاحنوه كيف لا يعرف جوامع الكلم؟ » ، وعندما سئل الكلابيون عن قول عمر ، قالوا : «كتب هذا عن قوم ليس لهم لغو كلغوننا .. واللغو الفاسد من الكلام» .

وإذا كانت هذه الأقوال وغيرها في صالح اللحن فإن أقوالا أخرى تنكره أو تنتقصه ، فقد تساءل ابن الأنبارى قائلا: « كيف يكون الخطأ فى الكلام مستحسنا والصواب مستسمجًا ، والعرب تقرب المعربين وتنتقص اللاحنين» ، وقال غيره ما يشابه كلامه ، وهكذا وقع خلاف في تقويم اللحن ، ولكن أكثر الأقوال تحبذ معرفته واستخدامه.

وإذا كان الغرض من اللحن الخطأ في اللغة والقراءة وإفساد المعنى ، فنحن من منتقديه ، ولكن اللحن لون من التورية والإخفاء والنطق بلفظ له معنى ظاهر وآخر باطن ليفهم المتلقي المعنى الخفي ويعمل به . وهذا من علائم الفطنة في الإنسان ، وما ذهب إليه ابن الأنبارى وغيره يكشف عن الغيرة على اللغة وسلامة ألفاظها ، وإعراب القرآن ، والميل إلى الكلام الواضح والنسق الحسن مما يثرى المعاني ويظهرها.

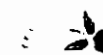

التَورية:

ومن أهم آثار القدماء التي وصلتنا في مجال اللحن كتاب «الملاحن» للإمام أبي بكر محمد بن دريد الأزدى (ت ٣٢١هـ). والكتاب وإن كان صغير الحجم فإنه يمدنا بأمثلة وافرة في الملاحن، وقد شرح فيه معنى اللحن وقرنه بالفطنة، واستشهد بقول النبي ﷺ: «**لعل أحدكم ألحن بحجته من بعض**»، أي أفطن لها، وبيّن أن اللحن هو أن «تريد شيئًا فتورى عنه بقول آخر» وأشار إلى أن بعض أعيان العرب لم يفقهوا معنى اللحن مثل معاوية فقد قيل لمعاوية: «إن عبيد الله بن زياد يلحن فى كلامه» / فقال: أوليس بظريف ابن أخي يتكلم الفارسية، فظن معاوية أن الكلام بالفارسية لحن إذا كان معدولا عن جهة العربية. وكان أولى بمعاوية أن يحيط باللحن لأنه يناسب رجلا له دهاء مثل دهائه. ويذهب ابن دريد إلى أن اللحن سمي بذلك؛ لأنه يخرج عن نحوين وتحته معنيان».

ويوضح ابن دريد السبب الذي دفعه إلى وضع كتابه هذا فيقول: «هذا كتاب ألفناه ليفزع إليه المجبر المضطهد على اليمين المكره عليها، فيعارض بما رسمناه ويضمر خلاف ما يظهر ليسلم من عادية الظالم، ويتلخص من حيف الغاشم، وسميناه

كتاب الملاحن».

وكلام ابن دريد هذا يمكن فهمه في ضوء الأمثلة القليلة المنقولة من كتابة : «تقول والله ما رأيت فلانا قط ولا كلمته، فمعنى ما رأيته أي ما ضربت رئته، ومعنى كلمته جرحته» .

وإذا قابلت كلام ابن دريد على معاجم اللغة ألفيت كلامه صحيحًا ، ففي «أساس البلاغة» مادة «رأى» رأيته أصبت رئته، وفي «لسان العرب» مادة «كلم» الكلام الجرح والجمع كلوم ، وكلمه كلما جرحه .. » وفي ضوء هذا تقرأ في كتاب ابن دريد قوله:

«تقول ما سألت فلانا حاجة قط ، والحاجة ضرب من الشجر له شوك والجمع حاج»، وقوله:

«تقول والله ما عرفت لفلان طريقًا ولا سلكته، فالطريق النخل الذي ينال باليد، وقوله:

«تقول والله ما عندي سرير ولا ملكته، فالسرير الماء المجتمع أو النهر» ، وقس على ذلك.

وأمثلة الكتاب كلها من نمط هذه الأمثلة ، كل مثال فيه لفظ أو لفظان يحملان معنيين ، معنى يبطنه المتكلم ليكون صادقًا مع

نفسه أثناء القسم، وآخر يظهره ليضلل به سامعه، أو يوري به ليتخلص من موقف حرج أو يدفع به إذا كان متهمًا.

ولا أدري إن كانت هذه الأقوال قد وقعت وقام ابن دريد بجمعها، أو أن تفوقه في اللغة، وذكاءه الحاد، ونبوغه جعلته يحفظ هذه التوريات الشاردة ويجمع بينها، ويصوغ منها مادة هذا الكتاب النادر في بابه، والراجح أن هذه الأقوال من إملائه وتأليفه، وليست مواقف وحكايات.

ولا ريب أن كتاب «الملاحن» مفيد في موضوعه، وفي مجال تعلم اللغة، واللعب بالألفاظ، ولعل قيمته ترجع إلى أن صاحبه بني اللحن فيه على التورية، فإذا كان السامع عالمًا في اللغة، عارفًا بالمعاني المختلفة للكلمة الواحدة، أدرك المعنى الخفي الذي يرمي إليه المتكلم، ولكن المتفقهين في اللغة قلة في كل زمان ومكان، ومن ثم فإن للتورية دورها في التعمية والإخفاء.

على أن إخفاء المعنى المراد بطريق التورية شاع على الألسن، وتردد في كتب الأدب وفي المقامة «الطيبية» من «مقامات الحريري» نجد فتى فتيق اللسان يتصدى لأبي زيد السروجي ويستفتيه في مسائل فقهية، والسروجي يرد عليه، ومن هذا

قول الفتى: « ما تقول فيمن توضأ ثم لمس ظهر نعله، قال انتقض وضوءه بفعله» ، والنعل هنا الزوجة.

قال الفتى: «فإن توضأ ثم اتكأه البرد، قال : يجدد الوضوء من بعد».

والبرد. النوم.

قال الفتى : «أيستباح ماء الضرير؟ قال : نعم ويجتنب ماء البصير ، والضرير حرف الوادي ، والبصير الكلب.

وتمضي معظم المقامة على هذا النحو ، الفتى يسأل والسروجي يجيب ، والمتبادر إلى الذهن من اللفظ شيء والمعنى الخفي منه شيء آخر، ولا جديد عند الحريري هنا إلا أنه وضع التورية في صيغة سؤال وجواب، وأدخلها في قالب قصصي، وتناول بها قضايا فقهية.

الكناية:

وفي بعض كتب التراث نجد أقوالًا، وتعريفات للملاحن مثل تلك التي نجدها في كتاب «شفاء العليل» للخفاجي الذي يقول: «ملاحن العرب ألغازها وهي المحاجاة ؛ لأنها تظهر الحجى والمعاياة والرمز والمعمي، والمتأخرون من الأدباء اصطلحوا على التفريق بينها ، وهو ليس بأمر لغوي وقد تطلق على كناياتهم كقولهم للخمر أشقر وللماء أشهب إلى غير ذلك».

ولعل الخفاجي يعنى بقوله: «هو ليس بأمر لغوي» أن اللحن مسألة معاشية ، ومن الموضوعات التي تتعلق بالهيئة الاجتماعية، ويدلف إلى نواح كثيرة فى الحياة الإنسانية ، ونراه يشير إلى الكنايات ويدخلها في اللحن ، أو يجعلها لونًا من ألوانه، أو بابا في أبوابه ، وقد عدها العرب كذلك ، ولا شك أن في الكناية إخفاء إذ إنها غير التصريح المباشر، والإفصاح عن المراد باللفظ القريب المعروف . وقد قال النابغة الجعدي.

أكنى بغير اسمها وقد علم الله خفيات كل مكتتم

وذكر المبرد أنه «يكون من الكناية ، وذاك أحسنها ، الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره» وضرب أمثلة منها قوله تعالى فى المسيح وأمه عليهما السلام : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ ، ويبين «إنما هو كناية عن قضاء

الحاجة، وقال: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ ، وإنما هي كناية عن الفروج.

والكنايات التي من هذه الدرجة يمكن اعتبارها من ضروب اللحن تجوزًا ، ولكن هناك كنايات أكثر غموضًا وتعمية مما أوردنا ، فقد روى القلقشندي الحكاية الآتية: «ومما وقع من ذلك في زماننا أنه في الدولة الظاهرية (برقوق) وتيمورلنك يومئذ ببلاد العراق يغاور الممالك الشامية لقصد الاستيلاء عليها ورد عليه كتاب من المملكة الحلبية فيه : أنه وقع بتلك البلاد سيل عظيم ساق جملة من الأسد والنمورة والحيات ، وأنه دفع حية عظيمة سعة رأسها بقدر قوس» .

وقرئ الكتاب بحضرة السلطان ، وحملوا ذلك على ظاهره ، من أن المراد حقيقة السيل ، وأنه لقوته ساق تلك الحية والسباع وغيرها ، وشاع ذلك بين الكافة من الأمراء وأهل الدولة وسائر الرعية، ومضى الأمر على ذلك ، ثم ظهر أن المقصود بذلك السيل وما فيه هو تيمولنك وعساكره، وأنه كنى بالحية العظيمة عن نفسه ، وبالسباع وا لحيات عن عساكره[1] .

(١) القلقشندي .صبح.. الأعشى جـ٩ ، وهناك كنايات أخرى تجري مجرى اللحن في «كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري و «العمدة» لابن رشيق وغيرهما.

الشفرة:

وإذا مضينا مع النصوص العربية نجد أن العرب والمسلمين طوروا اللحن ، وصار في فترة من الفترات عبارة عن علامة أو سيمة أو معمى أو ما يمكن أن يسمى بلفظ هذه الأيام شفرة، وهذه الشفرة أو الترجمة يصعب حلها أو معرفة سرها لما لها من ضوابط دقيقة.

وفي كتاب «آثار الأول في ترتيب الدول» للحسين بن عبد الله العباسي المتوفى سنة ٧١٠ هـ نص يبين استخدام الترجمة أو الشفرة في أعمال التجسس، إذ يظهر أنه يجب أن تكون هناك ترجمة معينة بين الملك وجواسيسه ، ويوضح أن هذه الشفرة تقي الملك من دس خبر أو رسالة تأتيه بخط يشابه خط جاسوسه، أو بمعلومات من جاسوسه يكون قد أرغم على كتابتها إذا تكشف أمره.

يقول صاحب «آثار الأول..»

«... ويجب أن يكون صاحب الخبر له توصل وتلطف ودسائس من النساء والصبيان والغلمان والخراس والحمامات، وأصحاب الحرف والصنائع، والمستحب أن يكون بين الملك وبين صاحب الخبر ترجمة لا يطلع عليها غيره، ولكل واحد

ترجمة مع صاحبه، وإذا أراد الملك أنه يحتاط في ذلك فلا يقنع في الأمور العظام إن كتب، أو كتاب إليه بالترجمة ، ولا بخط الكاتب ولا بالختم، فإنه هذه ربما يجبر عليها فاعلها أنه يشابه بها بل يكون بينهما علامة لا يطلع عليها غيرهم.

المترجم:

المترجم بفتح الجيم أو الترجمة هو المعمي، وهناك من يفرق بينهما ، ولكن الشائع هو أن الترجمة هي المعمي.

والمعمي أو التعمية علم كبير لا يعتمد على الفطنة فقط ، ولكن يستند إلى ضوابط وقواعد لابد من الإحاطة بها حتى يمكن تحويل نص معمى إلى نص مفهوم .

والأصل في المعمى هو تعمية النص الواضح ومن هنا ابتكر رواد هذا العلم طرقًا ووضعوا بنودًا لجعل الكلام ملتبسًا معقدًا معمى لا يستبين منه شيء لغير متقن هذا العلم ، ومن هنا كتبوا الترجمة بأرقام ، أو بلغات غير معروفة أو شائعة لدي الناس مثل لغة المغول ، وهناك مصطلح بين المتخاطبين بالترجمة أو بالتعمية يتألف من حرف أو أكثر أو من أرقام يسمى المفتاح.

وطرق التعمية كثيرة دونها هذه السطور، ويحسن بنا أن نشير إلى ما ذكره ابن الدريهم وهو من كتاب هذه الطرق قال : «ومنهم من يعكس حروف الكلمة فيكتب محمد «دمحم» وعلي «يلع» ، ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانية مطلقا في سائر الكلام فيكتب محمد أخو علي «حمدم خا عويل » إلى غير ذلك من التمييزات .

«ومنهم من يبدل الحروف بأعدادها فى الجمل فيكتب محمد أربعون وثمانية ، وأربعون وأربعة ، وتعمل التعمية صفة محاسبة.

«ومنهم من يكتب عوض عدد الحرف حروفا وهو أبلغ في التعمية ، فيكتب محمد «لى بولى ج» ، لأن اللام والياء بأربعين وهي عدد ما للميم الأولى والباء والو او بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضًا بأربعين وهي عدد ما للميم الثانية ، والألف و الجيم بأربعة وهى عدد ما للدال فكأنه قال : م ح م د. وان شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد.

«ومنهم من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره إلى آخره[1].

(١) القلقشندي – مصدر سابق.

ولعلي بن الدريهم المتوفى سنة ٧٦٢ هـ أرجوزة عن المترجم يشرح فيها أصول هذا الفن منها:

فإن كشف السر كالمترجم من أحسن العلوم للمستفهم

وهذه الأرجوزة التي كشف عنها أحمد تيمور باشا يزيد عدد أبياتها على مائتي بيت وجاءت على طريقة ابن مالك في ألفيته الشهيرة ، واستهلها ابن الدريهم بحمد الله والصلاة على رسوله وصحبة هدا ة الأمة ، ورأى أن المترجم هو أحسن العلوم ، ولا يستغنى عنه ، وموضع اهتمام الملوك ، ويعنى باستخراج المعلوم من المجهول أي الواضح من المعمى إلى أن قال:

وقد نظمت في أصول علمه قواعد تضبط حد رسمه
فإن تكن في حجمها لطيفة فإنها مفيدة منيفه
نافعة لمن دعاها كافية في الحل أو في الوضع وهي وافيه

وبالرغم من قوله هذا فإن كثيرًا مما ورد فيها مغلق غامض، ولكن من الجائز أن هذه القواعد والضوابط كانت ميسرة بالتقلين والتكرير، بيد أن بعض أبيات الأرجوزة واضح مفهوم لا تعوزه شروح مثل قوله:

أما الذي من المعمى مصطلح بغير تغيير الحروف قد وضح
منه ضروب أنا منها أذكر أصول وضعها فليس تحصر

فالأول المقلوب منهم منعكس ألفاظه أمثاله سعد دعس
أو أنه يقدم الأخيرا في كلمة مثل يراع عيرا
أو يبدل الأول منها عمدا بآخر كمثل أبدع عبدا
أو يبدل الأول منها رابعها يكتب في عابسها سابعها
أو ثانيا برابع وأولا بثالث مثل لانف نفلا

وهذا الكلام واضح ولا يخرج في الأمثلة التي ضربها ابن الدريهم عن تغيير مكان الحروف، أو قراءة الكلمة معكوسة، أو تقديم الحرف الأخير إلى آخره ، ومنها أن يعمد إلى كل كلمتين فينقل أول الأولى وآخرها إلى الثانية وأول الثانية وآخرها إلى الأولى كما إذا أردنا أن نكتب «أحمد كتب» ، فإنه يكون بهذه الطريقة «كحمب أتد».

«ومنها طريقة زيادة حرف بين كل حرفين من حروف الجملة ثم تصوير المجموع بصور ما يشاؤون من الكلمات مبالغة في التعمية والإبهام» ، وقد أشار إلى ذلك في قوله:

ومنهم من يجعل الحروفا حرفا وحرفا دائمًا مألوفا
مثاله محمد أخو علي من حام قد بار خضوع عيل لى

«فجملة من حام قد بار خضوع عيل لى. إذا أسقطت منها الحروف المزيدة وهي الثاني والرابع والسادس.. إلى آخره بقى

منها محمد أخو علي وهو المقصود»[1]..

ولم يذهب المترجم بذهاب الأيام ، فقد أفاد منه الحرفيون، وبعض الطوائف في لحنهم أو سيمهم ، فإننا نراهم يدخلون بين الحروف الأصيلة لبعض الكلمات حروفًا زائدة للتعمية والتمويه مثل قولهم خندا تم أي خاتم ، وسندكره أي سكر، وخندمره، أي خمرة، إلى آخره.

كما أن حساب الجمل استخدمه الشعراء طوال العصر العثماني في أغراض أخرى غير الترجمة مثل التأريخ للمواليد والوفيات وعيد الجلوس السلطاني ،وغير ذلك من مناسبات ، وظل حساب الجمل مستخدمًا في الشعر حتى طلائع القرن العشرين ، فقد نظم به أمثال الشيخ إبراهيم اليازجي ، وإبراهيم المويلحي، وإسماعيل صبري أستاذ الشعراء وخليل مطران ، وغيرهم .

وعلم الترجمة أو الشفرة أو المعمى عرفه العرب منذ القرن الثالث الهجري ، وأحكموا أصوله وقواعده ، ووضعوا فيه الرسائل المهمة مثل «رسالة الكندي في استخراج المعمى

(١) أحمد تيمور – مجلة الهلال – عدد فبراير ١٩١٦

و«المؤلف للملك الأشرف» لابن عدلان و «مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز»» لعلي بن الدريهم ، «رسالة أبي الحسن بن طباطبا في استخراج المعمى» ، وجزء من «رسالة أبي الحسن محمد بن الحسن الجرهمي» وغيرها .

وقد توفر الدكاترة محمد مراياتي ويحيى مير علم ومحمد حسان الطيان على هذه الرسائل المشار إليها ، وبحثوا عن مخطوطاتها ، وحققوها ، ويسروا صعبها ، واستظهروا مضامينها ، وترجموا لمؤلفيها ، ووازنوا بين طرائق كتّابها في استخراج الترجمة ، وبينوا صلة المترجم بالعلوم الأخرى، وجلبوا المصطلح الأجنبي في مقابل المصطلح العربي، هذا بخلاف إشاراتهم إلى جهود الآخرين في هذا المجال الرحب .

وفي هذه الدراسة الواسعة المكونة من جزءين تقرأ عن الترجمة المعماة بوضع الحروف على أيام الأسبوع والساعات ، والترجمة المعماة بالتركيب على الخرز الملون ، والترجمة المعماة على أحوال الكواكب ، واستخراج المعمي من الشعر وخلاف ذلك كثير[1] ، وبإيجاز قدم الدكتور مراياتي وصاحباه دراسة علمية دقيقة، هي الأولى من نوعها تستحق التقدير والتهليل .

(١) د. محمد مراياتي ، بالاشتراك ، كتاب «علم التعمية واستخراج المعمي عند العرب» جـ٢ ، مصدر سابق.

وقد أوضح هؤلاء العلماء، مراياتي وزميلاه : « أن علم التعمية واستخراج المعمى واحد من علوم كثيرة تدين للعرب ولادة ونشأة وتطورا ، وهو ليس كغيره من العلوم التي ترجم العرب بعض أصولها ، ثم أغنوها وطوروها ، كالرياضيات والفيزياء والفلسفة ، وإنما هو علم عربي المولد، يعود الفضل إلى العرب في ابتكاره ، ووضع أسسه، وإرساء قواعده وتطويره إلى أن بلغ مرحلة ناضجة».

ومن الدراسات الجادة في هذا المجال ، كتاب «الرموز السرية في المراسلات المغربية» للدكتور عبد الهادى التازى، الذي عرض للمراسلات المغربية المعماة في أزمنة الدول التي تعاقبت على المغرب، ويذكر بعض أسماء الذين أولوا الكتابة السرية عنايتهم مثل أبى بكر الصولي ومؤلفه «أدب الكاتب» وقد كانت الإشارات الكتابية عنده عبارة عن رموز، كأن يسمى الألف فاختة ، والباء صقرا ، والتاء عصفورا ، أو تكون أمام حروف الهجاء منزلة من منازل القمر، كذلك أشار التازي إلى كتب أخرى منها كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف» لحمزة الأصفهاني ، وقد كان يعبر عن الحروف بأسماء الطيور فإذا وجدت غرابا يتكرر مع عصفورة ، وعصفورة تتكرر مع غراب علمت أن أحدهما ألف والآخر لام».

ومثل هذه الكتب أظهرت بعض تراث العرب والمسلمين في علم التعمية في زمن اتسعت فيه دولتهم ، وترامت حدوها ، وتداخلت حضاراتهم مع حضارات أخرى ، وابتدعوا علوما منها اللغة السرية الشفرية التي أتقنوا فنها ، وأدخلوها أروقتهم السياسية ودواوين دولتهم ، واستعملوها في الحكم والرسائل .

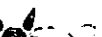

وعلى هامش علم الترجمة العربي نشير إلى جهود الأوروبيين في هذا المجال ، في كلمات قليلة ، ونبين أن هذا العلم يعرف عند الفرنجة بالكربتوغرافية أو البوليغرافية .

وللأوربيين ملاحنهم ومعمياتهم ، فقد استخدموا في العصور الوسطى ا لأرقام السرية ، واستبدلوا حروف العلة اللاتينية بنقط ورموز معلومة ، وكانت حكومة البندقية تستعمل الرموز في مكاتباتها السياسية ، فترمز للدوق بحرف B وللملك بحرف F .

وهناك كتب تناولت الكتابات السرية وضعها الأب جان تريتم (ت ١٥١٦) مثل «الرموز المختزلة الاصطلاحية» ، وكتاب البوليفرافية.

ثم اخترع الأوربيون طرقًا حديثة صارت التعمية فيها بالغة الصعوبة ، وهذه الطرق تعتمد على الحروف أو الأرقام أو الرموز أو الجمع بينهما إمعانا في التعمية ، ثم اخترعوا طريقة الشبكة المخرمة ، وطريقة يتستون[1]، وكل هذه الطرق قائمة على حروف وكلمات أصيلة تدخل فيها حروف وكلمات زائدة للتعمية ، ولها طرق لاستخراج المعمي والوصول إلى الكلام المراد.

والطريقة التي تستند إلى الحروف والأرقام تشبه إلى حد كبير المعمى عن العرب ؛ لأن لها مفتاحا ، عند العرب كذلك ، والمفتاح عبارة عن كلمة يتواطأ عليها المتكاتبون .

(١) لمزيد من التفاصيل انظر مجلة الهلال عدد يناير ١٩١٦.